من مذكرات الضياع

بقلم محيي الدين صبحي

١ ــ مع الرفاق

يلتمع امام عيني بريق ونشيش صدوع ، كأن جرارا من الصدق تنهال وتومض ، وانا استشف الظلام من خلال الغرفة المضيئة . يصل الى اذني بعض الحوار :

ــ يتجه الرسم الى الالوان والخطوط مهملا للمعاني .

ــ هذا اتجاه الفن الحديث الذي يتخلى عن الموضوعية .

يطلب واحد سيكارة وهو يقلب دفتر الرسوم ، باعثا عن خطوط اولى تصور جسدي رجل وامرأة . نخرج اخر الليل نشرد في الدروب واصوات المدينة تلاحقنا بعار لا ينقطع :

ــ عودوا الى بيوتكم وادرسوا لكي تنجحوا فقيمتكم هي ما تملكون من مال .

ــ كلا أيتها السيدة صاحبة العطر والدخان . قيمتنا ما نعرف لا ما نمتلك .

ويدور الحديث نحو الادب ــ نتحدث عن الهتنا : كامو ، سارتر، دوستويفسكي: اولاء كشفوا الانسان وفضحوا قلقه:

ج ــ توفر الامكانيات الطبيعية والبشرية .

د ــ التمسك بالمباديء الانسانية والقيم الروحية الاخلاقية

٢) العلم هو عامل جوهري واساسي في تطور النهضة ولكنه ليس العامل الوحيد ، من الضروري أن يقرن العلم بثقافة أنسانية عامة وان توجد الامكانيات والدعامات المعنوية اللازمة .

٣) الثقافة هي دعامة اساسية وضرورية ولا تتم نهضة شاملة بدونها .

٤) ان وجه الارتباط بين العلم والثقافة هو أن العلم يكون المادة الخام التي تعمل بها الثقافة والثقافة تضمن انتشار العلم وتكيف شخصيات الافراد وفقا لمبادئه وروحه .

٥) ان الانظمة المعمول بها حاليا لتحقيق مظاهر نهضة الشعوب ومعانيها هي :

أ ــ المؤسسات الروحية الاخلاقية

ب ــ الانظمة التربوية والاجتماعية والثقافية الوطنية والدولية .

ج ــ النظم الاقتصادية والتعاونيات الزراعية .

د ــ المنظمات الصحية .

ر ــ الانظمة السياسية التي تؤمن بمبدأ احترام الافراد واحترام حقوقهم وحرياتهم الاساسية .

ــ كفوا . تلكم احاديث بورجوازيين . علينا ان ننظم العالم .

ــ نظم شعر راسك يا عبيط

نتشاور في كأس بحجة انك لا تستطيع ان تجابه العالم دائم الوعي . ثم نفترق ، في فم كل واحد دخان وليس في رؤوسنا احلام . لقد كبرنا .. كبرنا كثيرا ومالنا على الحب طاقة . الحياة صعبة بلا احلام .

٢ ــ وحيدا

ليل بلا نجوم .. حالك كله ، وسارٍ في الدجى يؤنسه وقع قدمه او توحشه صور سود لاجساد بغايا . حتى السيكارة ..جال راسها رماد السنين . ذكريات علاقات بدون معنى . الصبح يلقي رداءه الرمادي ويلف الارض بدفء الحياة .

ــ أيها السائر في الدرب تمهل . سوف تعيش من جديد وتبعث ، لا في صورة ملاح تائه ولا افاق مغامر .

ــ ذاك احلم قديم . .

ــ انه تجدد :

معطفها الازرق . معطفها الازرق الشفيف . سوف يلقي على عينيك فتبصر . وسوف تحضن وجهها الابيض بيديك تقرأ في وجنتيها الناصعتين سورة الخلاص . وسوف تلقي برأسك المجهد على صدرها وتغني :

« يا غدي ، يا فرحة عمري

« ها انا مقبرة الدخان والسهر

« أنشد في حضنك امن الليالي . »

ــ اسكتي يا جوقة الامل ، انها مترددة بشأني .

ــ سوف تراها في الغد .

ــ سوف احييها واحدثها عن الله وعن معنى الخيبة في حياة الانسان ، حتى اذا مر الوقت « وقال للذات اللقاء : ترحلي » (١) اشعلت سيكارتي وعدت الى غرفتي الباردة احدق في الفراغ واسترجع حديثها « يا طيفها والثلج في جبهتي »(٢) وحين يعود المساء.. أجتمع بالرفاق فنتحدث عن الفن !

٣ ــ غب البوح

يملأ دنياي اليوم عطوف ينهل من همس الجفون . انا مذ بحت بالحب ــ بحبي ــ تشيلني نثرة ضوء الى افاق الصحو . ترى كيف يضع الشاب مستقبله بين يدين صغيرتين ؟

وذلك سر خطير عرفت امره في ثوان معدودات ، عرفته ذلك السر ــ في ثوان كثيفة لاهثة ضمخها الخفر . وخفر عذرائي ذات الجدائل الكستناوئية وخيوط الحرير المسبلة على الكتفين .

كنت احكي بصوت هامس احاول الا تظهر ارتعاشاته .

---

(١) شطر لشاعر قديم

(٢) شطر للشاعر فؤاد رفقه

لكن اناملي المصبوغة بصفرة الدخائن رجفت .. فضحتني اناملي المرتجفة . كانت اناملي طموحة لان تنغمس في ذلك الاخلاص الابيض ، فيتم بذلك عمادي .. واتطهر من رجس وحدتي الخرساء.

*

... الكلمات .. يالها من صديق خائن ! كلماتي العزيزة لم تنجدني حين اعوزتني الحاجة . قفز وجودي شابا لدن الهتي الرشيقة . هب قلبي يتنفض من سباته البارد ، ثم اقبلت اصداء السكون .. السكون الخصب تغزله العيون حين تلتقي بصمت بعد زوغان طويل .. وغرقت في بحر الزرقة ، في هدوء تتأكله الحيرة .

ما يفعل المحبان بعد بوح خجول ؟ يلهثان قليلا من ركض الحياة في الاعراق ويرتبكان مندهشين:

هي من مفاجأة قذفتها الى مطلق الحياة
وهو من جراة قذفته الى اعالي الافاق

ثم يهيمن الصمت الربيعي ويرتبكان . ما اسرع ما تلتقي العيون وتشرق الشمس ملء صدر الامل ، فيبتسمان خجولين وتعود الثرثرة تناغي القلبين كغناء نهر غزل ...

تباركت يا حب يا اخلاص يا امل . يجتمع الحب والسكون في نظرة .

يجتمع الخوف والرغبة في بسمة . يجتمع العقل والجنون في صبوة . والخوف والسكون والرغبة والعقل ، والحب والجنون .. كلها تمحي غب بسمة البوح .

وتلملم الحلوة الحسناء أشياءها لتنصرف : تضع الكتاب في الحقيبة السوداء . تربت بانملها الخمس ـ شمعات معبد ـ على الشعر الكستناوي . وتضع شالها المصفر على جيدها المشرئب كيفما اتفق ـ فهي عجلى ـ وتسير مياسة القد شامخة بأنفها الصغير ، وهي تصطنع الوقار .

تبارح المكان بخطى سريعة فتكاد قدمها الصغيرة لاتلامس الارض ، بل تطير . وقد تختلس نظرة الى الذاهل المطير الفؤاد . لكنني لا ادري بماذا حدثها قلبي حين رمقتني .. فانا لم اصدق انها ذهبت بل هي باقية معي ، ولم يزل وجودها يملأ حياتي حيثما أسير .

٤ ـ الفاتح الاعزل

انا صاحب البحار السبعة . لي عرائسها ودرها وكل شراع فيها . املكها كلها ، بقطرات الماء وذرات الرمال . لكن فوق البحار السبعة نجمتين لا املك نورهما الحنون ولا معاني الصحو في سمائهما .

شحذت اسلحة الغزو ورفعت الشراع ، فخبت وعدت العن الرياح . لم يطاول طموحي السماء قبل الان . كنت املك الارض وما زلت .. لكني اريد هاتين النجمتين يغدقان النور لي حدي.

*

سهرت اعواما طوالا أرصد النجوم . كسرت اساحتي ونبذتها في العراء . اقبلت حاسر الرأس عاري القدمين تاركا بحوري ومجدي العريض . حملت قلبي على يدي فارتعش تحت النور وبدأ يدعو :

« يا عينيها .. يا صحوا ازرق
« يا جزرا فرت من جنة
« يالونا .. يا نكهة مستقبل . »

وجثوت حيال الطيف خاشع الطرف ابتهل :

« يا ربتي ، هذا انا عاريا وبلا سلاح
« يكسو ني الحب ويحميني الامل .
« دعيني أهتدي بنور تينك العينين
« بنور نجمتين
« تخصبان غدي فاسير في الطريق
« وصحوة الاماني . »

٥ ـ الموعد الضائع

الصبح موعدنا .. والشمس يغسل نورها . غمرتني الثوني حتى غرقت في بحر الانتظار .. عبثا اتطلع ، فلا عشتار مرت ولا فم الفنج باد . اشلائي تسقط على المقعد البليد كميت يئس من البعث .

من يدري ؟ قد تكون امها المريضة احرجتها .. او زيارة صديقة . وقد تكون تركتني عن عمد لما سمعت عني فيتوجب عندئذ على الملاح ان ينشر شراعه ويعود ضاربا في عرض البحر ، يأكل الدخان ويشرب الليل ، قلقا من مغزى وحدته ، فارغا في معنى واقعه ، اشد سوادا واحلك ليلا . ويكون حتى الحب قد لفظني ، فأنا لم اقتنع لحظة ان في الحب الخلاص . لكنني ظننت أنه يخفف اليأس والوحدة ، ويزيد في تعاطف الانسان مع الحياة .. ويعطي الصراع معنى : فأنت تكافح من اجل أثنين .

هذه الافكار وحدها تثبت انني جاد في مطلبي وشريف القصد . وان لم تشأ حمامتي الزرقاء ان تقتنع فلست مراهقا حتى افكر بالانتحار او اعجن الشعر بالدموع . ولست بالحيوان الاجتماعي لابهرها باناقة اللفظ والثياب. فاذا لم تشفع لي النية الحسنة سوف اعود الى كهوف التوحد . اغني صمتي في ذهول :

يا ساعة التمزق ابتسمي
يا غول الوحدة تحفز
يا دروبا لا تنتهي أبشري
فلقد دعاد العبد الآبق ذليلا
عاد من جديد ، ليقيء الحياة اكثر من قبل

دمشق

محيي الدين صبحي